ليتَ القيامَ بأُنْسهِ يَتَجَدَّدُ

وقم إذا ما امتد جنح الدجى　　وغصّت الأجفــان بالنـــوم
واستـنشق الجنــة ريحانَهـــا　　وحُـمْ عليهـا أيمـا حَـوْم

اعلم رحمك الله أن المغبون في الدنيا الذي لا يقول : سأربح غدا ، ولا يهتدي من أمره رشدا ، ولا يتجر لسلعته أبدا ، وصلاة الليل من أنفق أسواق الآخرة سوقا ، وأكثر بضائعها حقوقا ، وجب على العاقل المنتفع بعقله أن ينظر لنفسه ويأخذ منها بحظه ، فيفرح بهذا الليل إذا أقبل وطال ، ويحزن إذا تقلّص وزال ، إذ هو موطن تنتعش فيه الأرواح ، وتبتهج وترتاح ، وتتقلّب بين مَسَرَّات وأفراح ، وتكثر من المساءلة والإلحاح ، وتمتار[1] من خير ربها وتمتاح[2]، وتستمنح من سماح مَنْ بيده السماح ، ومَنْ يُغدى على فضله ويُرَاح .

فهي قائمة بين يدي خالقها ، عاكفة على مناجاة بارئها ، تتنسم من تلك النفحات ، وتقتبس من أنوار تلك القربات ، وما يرد عليها في تلك المقامات ، فتارة تذكر هناتها ، وسالف زلّاتها ، وأيام بطالاتها ، فتجدّ وتجتهد ، وتعد وتستعد ، وترغب وتسأل ، وتتضرع وتتوسل ، وتجأر وتبتهل .

وعسى ولعلّ ، وما ذلك على الله بعزيز ، وإنه عليه ليسير ، وهو على كل شيء قدير .

قال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا حانوت المؤمنين، والليل والنهار رؤوس أموالهم، وصالح الأعمال بضائعهم، وجنة الخلد أرباحهم، ونار الأبد خسرانهم.

وأنشد بعضهم :

بهذا الليل فلتفرحْ فإنَّه ... لما ترجوه من خير مظنه
فخذه مرسِلا فيه جفونا ... كأن دُمُوعها سُحْب مُزنَّه
وقُمْ فيهِ ولو تحت المواضيء ... وقفْ فيهِ ولو فوق الأسنّه
وأنت بقلب محزونٍ أثارتْ ... به الأحزان نارا مُسْتَكنَّه
فبات لها بجنبيه شعاع ... يريك سناه من خلف الأكِنّه

(١) الميرة : طلب الطعام ، والمقصود : طلب الرزق والخير من الله .
(٢) امتاح فلان فلانا إذا أتاه يطلب فضله ، فهو ممتاح .

ونادِ مهيمنا جعلت إليه عُرَى الآمال من إنس وجنّه
عسى ولعلَّ والرُّغْبَى إليه وفيه ما تريد ومَا تمنّهْ
فخفه إنه أهل لذاكم ورَجِّه إنه المرجو إنَّهْ

أخي : خذ العمر في أوله ، واعمل منه في أفضله ، وأتِ من اجتهادك بأتمه وأكمله ، واسْعَ سَعْيَ من يخاف أن يقتطع عن المنزل ، ويحبس عنه فلا يصل ، قبل أن ينقل جلدك ، ويفتر جدُّك ، ويكبو زندك ، فيحبسك الكبر ، ويفنيك الهرم ، وتندم وأنّى ينفعك الندم . ومنْ سعى في الشباب وجد ذلك في الكِبَرِ أمامه ، وكان إلى كل نجاة إِمامه .

قال موسى بن علي : مشينا يوما مع الجنيد رحمه الله ، فلما بلغنا منزل الشونيزنية التفت إلينا ووقف، ثم قال: يا معشر الشباب، جدّوا قبل أن تعجزوا، واجتهدوا قبل أن تطلبوا أثرًا بعد عين ، فإني تذكرت مجاهدات لي في هذا المسجد ، وتقبح اليوم في عيني ما أنا فيه من البطالة . قال موسى : وكان حين قال هذه المقالة أكثر اجتهادا من جماعة شبان في أنواع المجاهدات(١) .

كان يزيد الرقاشي إذا قام لصلاة الليل يقول : اللهم إن فراري من النار إلى رحمتك بطيء ، فقرِّب رحمتك مني يا أرحم الراحمين ، وطلبي لجنتك ضعيف فقوّ ضعفي في طاعتك يا أكرم المسئولين(٢) .

قام رجل من الصالحين يصلي من الليل ، فمر بقوله تعالى : ﴿ **سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] فجعل يرددها ويبكي حتى أصبح ، فلمّا أصبح قيل له : لقد أبكتك آية ما مثلها يُبكي ! إنها جنة عريضة ـ أي واسعة ـ فقال : يا بن أخي ، وما ينفعني عرضها

(١) الصلاة والتهجد ص ٣٠٣ .
(٢) الصلاة والتهجد ص ٣٦٧ .

إن لم يكن لي فيها موضع قدم[1] .

قال أشهب بن عبد العزيز : خرجت ليلة بعدما رقد الناس ، فمررت بمنزل مالك بن أنس ، فإذا هو قائم يصلي ، فلما فرغ من قراءة ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ابتدأ ﴿ **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** ﴾ حتى بلغ ﴿ **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾ فبكى بكاء طويلا، ثم جعل يرددها ويبكي، وشغلني ما أسمع من كثرة بكائه عن التوجه إلى حاجتي التي خرجت إليها ، ولم أزل قائما وهو يرددها ويبكي حتى طلع الفجر ، فلما تبين له الفجر ركع ، فانصرفت إلى منزلي فتوضأت ، ثم أتيت المسجد ، فإذا به في مجلسه والناس حوله ، فلما أصبح نظرت إلى وجهه وقد علاه نور[2] .

قال سعيد بن عبيد : كان سعيد بن جبير يؤم قومه ، فسمعته ليلة في تراويح شهر رمضان يردد قوله تعالى : ﴿ **إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون** ﴾ فجعل ينشج بنشيج يقطع أكباد السامعين ؛ حتى سقط مغشيا عليه[3] .

وقام الحسن البصري ليلة يصلي فردد هذه الآية حتى أسحر ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ فلما أصبح قيل له : يا أبا سعيد ، لم تكد تجاوز هذه الآية سائر الليلة ! قال : إن فيها لمعتبرا ؛ ما نرفع طرفا ولا نرده إلا وقع على نعمة ، وما لا نعلم من نعم الله أكثر[4] .

إن من ادعى محبة الله يكون أسيرا في قيود السهد والفكر، بل قتيلا بسيوف الذل والعبر .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٣) الصلاة والتهجد ٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٨-٢٧٩ .

فالبس من الظلماء سابغ درعها | والناس فيه هُجَّد وقيامُ
وإذا نزفت دموع عينك فابْكين | بدم له من مُقلتيك تتجامُ
من قلب أهيمَ لا يقرُّ قراره | حتى يرى ما خطّت الأقلام
والبس لهذا الموت جنة خائف | قد ضاق عنه مسلك ومقام
واكحل جفونك بالسهاد من أجله | فالسهد حل والمنام حرام
فمن العجائب أن تراه نائما | من طالبوه ساهرون قيام[1]

قال الجريري : قصدت الجنيد فوجدته يصلي ، فأطال جدا ، فلما فرغ ، قلت له : قد كبرت ووهن عظمك ورَق جلدك وضعفت قوتك ، فلو اقتصرت على بعض صلاتك . فقال : اسكت ، طريق عرفنا به ربنا لا ينبغي لنا أن نقتصر منه على بعضه . والنفس ما حمّلتها تتحمل ، والصلاة صلة ، والسجود قربة ، ومن ترك طريق القرب ؛ يوشك أن يُسلَك به طريق البعد ، ثم أنشد :

صبرتُ عن اللذات حتى تَولّت | وألزمت نفسي هجرها فاسْتمرتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً | فلما رأت صبري على الذلِّ ذَلَّتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى | فإنْ تُوِّقتْ تَاقتْ وإلَّا تسلَّتِ

قال أبو سليمان الداراني : لو لم يبك الغافل باقي عمره إلا على ما فاته من لذة الطاعة فيما مضى من عمره ؛ لكان ينبغي أن يبكي على ذلك حتى يخرج من الدنيا .

وعد ثوبان العابد أخًا له في الله أن يفطر عنده فلم يفعل ، فلقيه أخوه ذلك ، فقال له : وعدتني أن تفطر عندي ، فلم تفعل وأخلفتني ، فقال له : لولا ميعادك الذي وعدتك ما أخبرتك بالذي منعني عن الوفاء . لما صليت العتمة أردت المسير إليك ، فقلت : أوتر فإني لا آمن الموت أن يطرقني ، فإن جاءني وجدني قد أوترت ، فأوترت ، فلما كنت في الدعاء من الوتر رُفِعتْ لي روضة

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٢ .

خضراء من الجنة ، فيها أنواع من الزهر ، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت ، فأنساني ذلك وعدك الذي وعدتك[1] .

في ظلمة الليل للعباد أنـوار ... منها شموس ومنها فيه أقمـارُ
تسري قلوبهم في ضوئهن إلى ... ذاك المقام ومولاهم لهم جارُ
يَرْقَوْن في درجات كلها قدس ... طورا فطورا وذاك القُدس أطوارُ
فينزلـون رياضا جَمّـة أنفـا[2] ... فيها من العلم أشجار وأنهارُ
يا طيب مأكلهم وطيب مشربهم ... وطيبت ما نزلوا وطيب ما ساروا
هو اللذاذُ وإنْ عَزّت مطالبه ... وهِي الأماني وإن شَطّت بها الدارُ
فازوا بها ورجال الله فائـزةٌ ... وفي العنايـة تخصيص وإيثـارُ
أكرِمْ من رجال لـو رأيتهمُ ... وللظلام على الأجفانِ أستـارُ
رأيت أشباح قوم مُلّئتْ عجبا ... ماءً يفيض وفي ينبوعه نـارُ
خُمص البطون من الدنيا كأنهمُ ... خيل الرّهانِ وهذي الدار مضمارُ
تخالهم وَيْكَ موتى لا حِراك بهم ... وهم مع الله إقبـال وإدبـارُ
إنْ ينطقـوا فتـلاواتٌ وأذكار ... أو يسكتوا فاعتبارات وأفكارُ
ورُبما بُهت الأقوام مِنْ عجبٍ ... وفي القلوب أعاجيب وأخبارُ
مستيقظين لذي الذكرى فكلهمُ ... لـذا التذكـر أسماع وأبصارُ
حدِّثْ حديثهـمُ لله دَرّهـمُ ... ففي حديثهم شرب وإسكـارُ
مَرّوا إلى الله منشورا لواؤهم ... تحت العجاج وجند الله أنصارُ
مستعصمين بمولاهم فلو قذفوا ... في جاحم النار لم تقربهمُ النارُ

أخي ، يقول الله تعالى : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوْ كسبت في إيمانها خيرا** ... ﴾ أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها ، ولا يعرف ذلك ولا يفزع إليها إلا المتهجدون ، فيأمنون

(١) الصلاة والتهجد ٣١٣ .

(٢) الرياض الأُنُف : هي التي لم يرعها أحد .

بصلاتهم ، ويخسر الغافلون ، ولَوْ لم يكن للمتهجدين إلا هذا الشرف لكفاهم نجاة وشرفا وعلما ؛ أَلَمْ يَقُل الله تعالى في حقهم : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ .

ولقد ساق السيوطي في تفسيره الدر المنثور (٣/٣٩٠-٤١٠) آثارا أخرجها ابن مردويه عن حذيفة عن رسول الله ﷺ ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ، وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق قتادة، وعبد بن حميد وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله ﷺ، وذكرها أيضًا ابن كثير عن تفسير هذه الآية .

« وفي ليلتها تطول تلكم الليلة كقدر ثلاث ليال ، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له، ثم يقضون صلاتهم والليل كأنه لم ينقض، فيضطجعون حتى إذ استيقظوا والليل مكانه ، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم، فإذا أصبحوا فطال عليهم طلوع الشمس، فبينما هم ينتظرونها إذا طلعت عليهم من قبل المغرب، فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت قبل ذلك ».

وعند عبد بن حميد : « ليأتين على الناس ليلة بقدر ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك يعرفها المصلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ، ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام، ثم يقوم، فبينما هم كذلك ماج الناس بعضهم في بعض فقالوا: ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها ، فضجَّ الناس ضجّة واحدة » .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن ابن مسعود أنه قال ذات يوم لجلسائه: أرأيتم قول الله عز وجل : ﴿ **تغرب في عين حمئة** ﴾ ماذا يعني بها ؟ قالوا : الله أعلم! قال: فإنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته، وكانت تحت العرش، فإذا حضر طلوعها ، سجدت له وسبّحته وعظمته واستأذنته فيؤذن لها ، فإذا كان اليوم الذي تحبس فيه سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته فيقال لها :

اثبتي . فإذا حضر طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته ، فيقال لها : اثبتي فتحبس مقدار ليلتين ، قال : ويفزع إليها المتهجدون ، وينادي الرجل جاره : يا فلان ما شأننا الليلة ؟ لقد نمت حتى شبعت، وصلّيتُ حتى أعييت ؟! ثم يقال لها : اطلعي من حيث غربت .

يا أخي ، لا يرفع طول هذه الليلة إلّا حملة القرآن المتهجدون ، فيتضرعون ويبكون ، والغافلون في غفلاتهم ، لا تنفعهم غفلتهم وبكاؤهم ، ويكتب عليهم حسرة . أما المتهجدون فينفعهم ليلهم وتهجدهم وبكاؤهم ، فيأمنون .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي أسامة قال : إن صبح يوم القيامة يطول تلك الليلة كطول ثلاث ليال، فيقوم الذين يخشون ربهم فيصلون، حتى إذا فرغوا من صلاتهم أصبحوا ينظرون إلى الشمس من مطلعها، فإذا هي قد طلعت من مغربها.

أخي : بطول السُّرى يقصر الطويل ويقرب البعيد ، ومن سرى ليله حمد رأيه وانتظر نيله .

قال أبو حازم : ما مرّت بي ليلة إلّا وأنا لم أقض نهمتي .

وقيل لبعض الصالحين: كيف الليل عليك؟ فقال: ما أدري ما أنا فيه، إلّا أنني بين نظرة ووقفة، يقبل بظلامه فأتدرعه، ثم يسفر قبل أن أتلبسه ثم أنشد:

لم أستتم عناقــه لقدومــــه   حتى بـدا تسليمـه لوداعــي

شكا بعض الطلاب لأستاذه سهر الليل ، وأن طوله قد أضرَّ به ، وأنه لا يقدر أن ينام ، وسأله في شيء يستجلب به النوم ، فقال له أستاذه : يا بني إن لله نفحات في الليل والنهار، تصيب القلوب المستيقظة، وتخطىء القلوب النائمة، فتعرضْ يا بني لتلك النفحات . فقال له : يا أستاذ ، تركتني حياتي لا أنام بالليل والنهار ما استطعت .

قال بعضهم : ما رأيت كالليل ، إن اضطربت تحته غلبك ، وإن ثبت له لم يقف لك .

أخي ، جاء رجل إلى محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ فقال له : عَلِّمْني العبادة . فقال له ابن سيرين : أخبرني عن نفسك كيف تأكل ؟ قال : آكل حتى أشبع . فقال : ذاك أكل البهائم . قال : فكيف تشرب الماء ؟ قال : أشرب حتى أروى . قال : ذاك شرب الأنعام ، اذهب فتعلم الأكل والشرب ثم جِيء حتى أُعلمك العبادة .

قال أبو جعفر البقّال ـ وكان رجلا صالحا ـ : دخلت على أحمد بن يحيى فرأيته يبكي بكاءً كثيرا ما كاد يتمالك. فقلت له: أخبرني ما حالك؟ فأراد أن يكتمني فلم أدعه ، فقال لي : فاتني حزبي البارحة ، ولا أحسب ذلك إلا لأمر أحدثته ، فعوقبت بمنع حزبي ، ثم أخذ يبكي ، فأشفقت عليه وأحببت أن أسهل عليه ، فقلت له : ما أعجب أمرك ! لم ترض عن الله تعالى في نومة نوّمك إياها حتى قعدت تبكي ! فقال لي : دع عنك هذا يا أبا جعفر ، فما أحسب ذلك إلا من أمر أحدثته ، ثم غلب عليه البكاء ، فلمّا رأيته لا يرجع إلى قول انصرفت عنه وتركته[1] .

واشترى أبو عبد الله النباجي جارية سوداء للخدمة، فقال لها: قد اشتريتك، فضحكت ، فحسبها مجنونة ، فقال لها : أنت مجنونة ؟ فقالت : سبحان من يعلم خفيات القلوب ، ما أنا بمجنونة . ثم قالت له : هل تقرأ شيئا من القرآن ؟ فقال : نعم . فقالت : اقرأ علي . فقرأ عليها : بسم الله الرحمن الرحيم ، فشهقت وقالت : يا مولاي هذه لذة الخبر فكيف لذة النظر ؟ فلما جنّ الليل وطىء فراشا للنوم ، فقالت له : أما تستحي من مولاك إنه لا ينام وأنت تنام ؟ ثم أنشدت :

عجبًا للمحب كيف ينام جوف ليل وقلبه مستهام
إن قلبي وقلب من كان مثلي طائران إلى مليك الأنام
فارض مولاك إن أردت نجاة وتجافى عن اتباع الحرام

---

(١) الصلاة والتهجد ص ٣٢٢-٣٢٣ .

قال النباجي : ثم قامت ليلتها تصلي ، فلما كانت في آخر سجدة سمعتها تقول فيها : يارب ، بحبك إياي لا تعذبني ، فقلت لها : غلطت ، قولي : بحبي إياك لا تعذبني ، فلما فرغت قالت لي : يا مولاي ما غلطت ، بل أصبت ، لولا سابق محبته لي لم أحبه ، ولم توجد محبتي له[1] .

قولها له : أما تستحي من مولاك أنه لا ينام وأنت تنام ، إنما تريد وأنت تنام مختارًا للنوم ، وإنما ينبغي لك أن تكون في عبادة وفي عمل يقربك منه حتى يغلبك النوم ، فإذا غلبك النوم نمت .

ومثل هذه الحكاية ما يُروى عن السري رحمه الله تعالى قال :

دخلت سوق النخاسين[2] فرأيت جارية ينادى عليها بالبراءة من العيوب ، فوقف الناس عنها ، فاشتريتها بعشرة دنانير ، فلما انصرفت بها إلى المنزل ، عرضت عليها الطعام ، فقالت لي : والله يا مولاي ما رأيت أحدا في دارنا أكل نهارا قط . قال : فخرجت فتركتها ، فلما كان العشاء أتيتها بطعام فأكلت منه قليلا ، ثم قالت : يا مولاي ، بقيت لك خدمة ؟ قلت : لا . قالت : فدعني لخدمة مولاي الأكبر . قلت : أي وكرامة . فانصرفت إلى بيت تصلي فيه ، وصليت أنا العشاء الآخرة ورقدت، فلما مضى من الليل الثلث ضربت الباب عليّ، فقلت لها: ما تريدين؟ قالت : يا مولاي أما لك حظ من الليل ؟ قلت : لا . فمضت ، فلما كان النصف منه ضربت علي الباب وقالت : يا مولاي ، قام المتهجدون إلى وردهم . قلت : يا جارية ، أنا بالليل خشبة ، وبالنهار جلبة . قالت : يا ويلاه ! ومضت . فلما بقي من الليل الثلث الآخر ضربت الباب عليّ ضربًا عنيفا ، وقالت : أمَا دعاك الاشتياق إلى مناجاة الملك الخلّاق ، قم خذ لنفسك مكانا ، فقد سبقك الخُدّام . فهاج مني كلامها خاطرا ، وقمت وأسبغت الوضوء ، وركعت ركعات ، ثم

---

(١) الصلاة والتهجد ص ٣٢٧ .

(٢) النخاس : في الأصل : بائع الدواب ، سمي بذلك لنخسه إياها حتى تنشط ، وقد يسمى بائع الرقيق نخاسا ، والأول هو الأصل .

تحسست إليها فوجدتها ساجدة ، وهي تقول : يا مولاي ، بحبك لي إلاما غفرت لي : فقلت لها : يا جارية ، ومن أين علمت أنه يحبك ؟

فقالت : يا مولاي ، لولا محبته علي ما أنامك وأقامني . فقلت لها : اذهبي فأنت حرة لوجه الله العظيم ، فدعت ثم خرجت وهي تقول : هذا العتق الأصغر ، بقي العتق الأكبر[1] .

وكان بالقيروان رجل يمشي ويُذكِّر الناس عامة الليل[1] ، ويقول فيما يقول : الرحيل الرحيل . فبقي على ذلك زمانا ، ففقد صوته ابن الأغلب أمير القيروان فسأل عنه ، فقيل له : قد مات ، فأنشد ابن الأغلب :

ما زال يلهجُ بالرحيل وذِكْرِهِ   حتى أناخ ببابه الجَمّالُ
فأصابه ذَا أُهْبةٍ مستيقظًا   متشمِّرًا لَمْ تُلْهِهِ الآمالُ[1].

وكان موسى الطبراني يقوم الليل كله ، فإذا كان السحر نادى : حَتى متى أصِفُ الطريق للمريدين، وأنا في جادة المتحيرين، عمل العاملون، مضى الصالحون، فاز المتقون ، ثم يبكي ويشهق .

قال محمد بن السماك : كان لي جار بالكوفة يصوم النهار ، ويقوم الليل ، فإذا جنّ عليه الليل يبكي ويقول :

لمّا رأيتُ الليل أقبل خاشعا   بادرتُ نحو مؤانسي وحبيبي
أبكي فتُقْلِقُني إليه صبابتي   فأبيت مسرورا بقرب مجيبي

فإذا كان آخر الليل يبكي ويقول :

قدْ بتُّ في الليل إذْ لاحتْ   معالمه ماكان أنسي فيه بمولائي
ضمنت في القلب حبا قد كلفت به   والله يعلم ما مكنون أحشائي

وكان له أب شيخ كبير فسألني أن أكلمه ليرفق بنفسه ، فبعثت إليه يوما

(١) الصلاة والتهجد لابن الخراط ص ٣٢٩ .

وأنا في جماعة من أصحابي ، فلما جاء نظرت إليه فإذا هو كالشن[1] البالي ، فسلّم وجلس فقلت له : يا حبيبي إن الله عز وجل افترض عليك طاعة أبيك ، كما افترض عليك طاعته ، ونهاك عن معصية أبيك ، كما نهاك عن معصيته ، فتأذن لنا أن ننصحك في شيء، فقال لي: يا عم: لعلك تريد أن تأمرني بالتقصير في العمل، وترك المبادرة إلى الله عز وجل؟ قلت: لا، ولكن بدون هذا يدرك المطلوب.

فقال : هيهات هيهات يا عم ، إني بايعت على هذا الشأن فئة من الحي ، بايعتهم وعاهدتهم على السباق إلى الله سبحانه ، فجدوا واجتهدوا ، ودعوا فأجابوا رحمة الله عليهم ، ولم يبق من القوم غيري .

قال محمد بن السماك : فتركنا والله في حيرة ومضى ، فما كان إلا قليل حتى قيل لي : قد لحق بالله عز وجل :

قد أدبر الليل وطاب الكرى   وقام منْ يبغي الرِّضا والغِنَا
وبـان للمُتـعب راحاتُـه   واستعذب الخدمة لمّا خلا
يشكو إليه نفسه أنّها   أمارّة بالسوء تبغي الردى

قال أبو سليمان الداراني : أهل الليل على ثلاث طبقات : فمنهم من إذا قرأ فتفكر بكى ، ومنهم مَنْ إذا قرأ فتفكر لم يبك لكنه صاح ، ومنهم مَنْ إذا قرأ فتفكر لم يبك ولم يَصِحْ ولكنه بُهِت . فقال له رجل : يا أبا سليمان ، من أي شيء بكى هذا ومِنْ أي شيء صاح هذا ؟ ومِنْ أي شيء بُهِت هذا ؟ قال : ما أقوى على التفسير . قال أبو سليمان : وهذه الطبقة أرفعها ، وهي التي إذا تذكرت بهتت ، فلم تبك ولَمْ تصح .

عَرِّج على الدار لا شطّتْ بك الدار   هناك خَيَّمَ رهبانٌ وأحبارُ
وانظر هناك رجالاتٍ كأنهمُ   خيل الرِّهان جرى بهن مضمارُ

---

(١) القربة البالية .

شدوا الحزيم[1] وأرخوا من أعنّتِهِمْ وساعدتهُم على المطلوب أقدارُ
قاموا ونمتَ وأرزاق الورى قِسَمٌ وفي المقادير إيراد وإصدارُ

يابن آدم :

بقيام الليل يعلو أجرك ، ويربى زندك ، ويثبت مجدك ، فإيّاك أن تَهُدّ بالكسل بنيانه ، وتسقط بالملل إيوانه ، فيخرب منك مالا يَعْمر ، وينصدع منك ما لايُجْبر ، وتخسر من بضائعك أعظمَ ما يُخسَر .

لو يعلمُ الراقدُ مافَاتَهْ وأيُّ مجدٍ هَدّ أبياتَهْ
لحَرَّمَ النوم على جفنه وَسَدَّ بالخدمة أوقاتَهْ
وأرسل الدمعة ممزوجَةً على مبيت طالما مابَاتَهْ
ضيَّع فيه الحظَّ من ربِّه ولم يُبَال الذي فاتَهْ
من درجات ثَبَتَتْ في العُلَى تحكم في الفردوسِ إثباته
ومَنْ يَرُمْ تلك المعالي غَدًا يطل إليها اليوم إِعناتَهْ

أخي، ماظنك ـ رحمك الله ـ بعبد أراه الله نوره فأنار له ضميره، وكشف عنه حُجبَه وسُتُوره ، أتقول : يخالطه كسل ، أو يطوف به ملل ، أوْ يجزع لطارق نَزَلْ ، صغُرَ أوْ جلَّ ، كَثُرَ أَوْ قَل ؟ كلا ، ومن أنعم عليه وأحسن إليه ما دام ذلك النور حواليه ، ودليل ربه تبارك وتعالى بين يديه .

قال سعيد بن المسيب: إن الرجل ليصلي بالليل؛ فيجعل الله في وجهه نورا يحببه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط، فيقول: إني لأحب هذا الرجل.

يا بن آدم : اهجر فراشك ، فإن الفرش غدًا أمامك .

اهجرْ فراشَكَ جوفَ الليلِ وارْم بهِ ففي القبور إذا وافيتها فُرُشُ
ما شئت إنْ شِئتَها فُرُشا مُرَقّشة أوْ رمضةً فوقها السمومةُ الرقُشُ[2]

(١) موضع الحزام من الصدر والظهر كله ما استدار ؛ كناية عن التشمير للأمر ، والاستعداد له .
(٢) الأفاعي المرقشة بنقط سوداء وبيضاء .

هذا عليه قرير العين نائِمُهـا   وذَا عليه سخين العين يُنتهشُ
شتـان بينهمـا وبين حالهمـا   هل يستوي الرِّيُ في الأحشاءِ والعطشُ
فبادرْ الصبح أن تغشى طلائعه   ويلتقي اللحيان الروم والحبشُ
كم فاز دونك باللذات من رجلٍ   وافَى به دُلجَ الأسحارِ والغبش[١]
قاموا ونِمْنَا وكُلٌّ في تَقَلُّبـِهِ   لنفسه جاهدا يسعى ويَجْتوشُ[٢]
زكُّوا نُفُوسَهُـم بكـل صالحةٍ   وطَيَّبُوها فلا عيب ولا وقَشُ[٣]
أولئك النَّاسُ إنْ عُدَّ الكرامُ فَهُمْ   وإن تُرِدْ دَبْشا فنحن ذَا دبشُ

قال أبو إسحاق الجيلي : قدمت على علي بن عبد الحميد الغضائري[٤] ، فوجدته أكثر خلق الله عبادة ، وأعظمهم مجاهدة ، وكان لا يتفرّغ من صلاته آناء ليله ونهاره ، فانتظرت فراغه ، وطلبت الكلام معه ، فلم أقدر على ذلك ، ولم أجدْ إليه سبيلا ، فقلت له : يا هذا ، إنّا قد فارقنا الآباء والأمهات ، وهجرنا الأهلين والقرابات ، وتركنا الأوطان ، وارتحلنا إليك حتى قدمنا عليك ، فلو تفرغت إلينا ساعة حتى تعلمنا مما علمك الله ، وتفيدنا مما أفادك الله . فتفرغ وقال لي : أصابتني دعوة الرجل الصالح سري السقطي ـ رحمه الله تعالى ـ جئته يوما فوجدته في مناجاته ، فضربت بابه ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا ، فسمعته يقول : اللهم مَنْ جاءني يشغلني عنك فاشغله بك عني ، فما رجعت من عنده حتى حُبّبت لي الصلاة ، والشغل بذكر الله ، فما أتفرغ لشيء سواه .

أثـارَ التذكّـرُ أَحْزانَـهُ   فثـارَ وأبـدى لنـا شَانَـهُ
وقـام سِتْـر الدجـى مسبَـلُ   فأسبـل بالدمـع أجفانَـهُ

---

(١) شدة ظلمة الليل .
(٢) الاجتواش : هو أخذ الرجل صدرا أو جزءًا من الليل .
(٣) الوقش : العيب .
(٤) الدبش : القَشْر .
(٥) في صفة الصفوة وحلية الأولياء : العطائري .

وبَكّى ذُنُوبا له قد مَضتْ فأبكَى عِداه وخِلّانه
وَمَنْ لَمْ يكُنْ قلبُه جمرةً فهذا لعمرُك قد كَانَه
ومَنْ ذا أحقُّ بها من جهولٍ تحقّقَ للهِ عصيانَه
وأخلقَ في اللهو جُثْمانَه كما أخلق الذنبُ إيمانَه
فلولا تَفضّلُ مَنْ فضلُه عرفناهُ قِدْمًا وعرفَانُه
لَعَنَّ[1] على وجهه آيةٌ تكون على الخزي عُنْوانَه

قال بعض الصالحين : أقل فائدة تكون في ذكر الكبار والصالحين وأهل الحقائق أن يعرف الإنسان نفسه ، ويرى تقصيرها وكسلها وقلة جدها . ويُروى هذا الكلام عن أبي بكر الدقاق .

كان أبو إسحاق السبيعي يقول : يا معشر الشباب ، جدوا واجتهدوا ، وبادروا قوتكم ، واغتنموا شبيبتكم قبل أن تعجزوا ، فإنه قلَّما مرّت بي ليلة إلا قرأت فيها ألف آية .

ما عَلَى الليل لو أقام علينا ساعة مُحْسِنًا بذاكَ إلينا
فَجَلَوْنا به صَدأ من قُلوبٍ أكسبتها الذنوبُ طَبْعًا وَرَيْناَ
ودَنَوْنَا من ربّنا وعَلَوْنا وسَمَوْنا بفضله وارتقينَا
فسمعنا عجائبًا ورأينا وشُفينا جراحة واشتفينا
فاز عبدٌ أقام بالليل سُوقا أغْفلته التجار غينا وعينا
قام فيه وستْرُه قد تدَلَّى والكَرَى مالىءٌ فُؤادا وعينا
فطوى في الضلوع نارًا وأجرى في الثرى من دُموع عَيْنَيْه عينا
وشكا ماشكا بذُلٍّ وشجوٍ صيّر الصعب من أمانيه هَينا
فتغشّاه من سُرورٍ وطيب ما ثنى خِفَّة وأذْهَبَ أيْنَا
وإذا ما الأنام لله قاموا بان في جنة هُنالِكَ بَوْنا

---

(١) بدا وظهر .

كان شريح بن هانىء يقول : ما فقد رجل شيئا أهون عليه من نعسة تركها .

واصبرْ مع الله على فقدها أهون شيء نومةٌ تفقد

وكان بشر بن سعد يوقظ أهله ويقول : الصلاة الصلاة . ويقول :إن السفر لا يقطع إلا بِدُلَجِ الليل ، وإن الدنيا سفر ونصب وتعب ، حتى يُفضي العبد إلى رحمة الله تعالى .

من كثر في سفره رقادُه ، تعذر مراده وطال عن محبوبه بعاده .

كم ذا الرقادِ وأهل الجدِّ ما رقدوا كأنهم دوننا بالأمر قد قصدوا
قاموا ونمْتَ وجَدُّوا إذْ هَزِلْتَ وما عملتَ من عمل ذاكَ الذي تَجِدُ
يا صفقة خَسِرَتْ وخاب تاجرُها هل فيك وَيْكَ لنقض البيع مستندُ
وَلّى الشبابُ وولّى العمرُ أطيبُهُ وغيض سَلْسَلُه فما الذي تِردُ
فاهجر منامك لا تُلمِمْ بساحته ففي القبور إذا ما جئتها مهدُ
ما شئت إن شئتها مهدًا مُلَيَّنَةً من الحريرة وإلّا جمرة تِقدُ
لله درّ رجال لم يَمِلْ بِهِمُ لين الفِراش ولا الأوانسُ الخُردُ
قاموا ونار الأسى في القلب تتّقدُ ودمعة العين في الخدّين تَطّرِدُ
بثوا حديثهمُ وطول شجْوِهِمُ واستشفعوا لِعَظيم الفضل إذْ قصدوا
تنعموا في الدّجَى بقرب ربِّهمُ وفي قبورهم يا طيب مَا وجدوا
جازوا عليك وأنت راقِدٌ فمضوا وخَلّفوك إلى الوِرْد الذي وردوا
يا راقدًا ورجالُ الله ساهرةٌ ما كان أولى بتلك المقلة الرَّمَدُ

قال سفيان الثوري : كان زياد بن فياض[١] يخرج إلينا كأنما خرج من قبر ؛ من كثرة صلاته وعبادته .

---

(١) هو : أبو الحسن الخزاعي ، كوفي ، روى عن سعيد بن جبير ، وروى عنه الثوري والأعمش ، قال يحيى بن معين : ثقة . « الجرح والتعديل » (٣/٥٤٢) .

كان محمد بن بسّام الأوني من البكائين ، وأقام نيفا وأربعين سنة يصلي بالقرآن في كل ليلة ، وربما ختمه في الليل والنهار مرتين ، وما ترك ذلك قَط في سفر ولا حضر، ولا في أرض الروم ولا بطريق مكة، وكان إذا استثقل في النوم أتاه آتٍ فقال: السلام عليك أبا عبد الله وَرحمته وبركاته، الصلاة رحمك الله، الصلاة خير من النوم ، وربما أحس بإصبعه تُعَضّ .

وأنشد بعضهم :

ابْرأ إلى الله من النومِ   في ليلة تغشاك أو يوْم
غَيرُ غذاء تغتذيه وإنْ   أوذيت بالعتْبِ واللّوْم
وقم إذا ما امتد جنح الدجى   وغصّت الأجفان بالنوم
وأنت مِنْ ذنبك في رَوْعَةٍ   ينهَدُّ منها أجلَدُ القوم
واقطع مدى عمرك صوما وسُم(١)   نفسك فيه شد ما سومِ
واستنشقت الجنة ريحانَهَا   وحُمْ عليها أيَّما حَوْمِ
فربما نِمْت بتركِ الكرى   ونِلتَ عَذْبَ الوِرْدِ بالصوم

قال عمرو بن ميمون : مكث هشيم بن بشير يصلي الصبح بوضوء العشاء الآخرة عشرين سنة .

شَمَّرَ للأمر قد شَمَّرا   وقطعَ الليل صلاةً ودُعَا
وكلما يخافه إذا دَجَا   من كسل في جِدّه أوْ مَنْ وَنى
أنشد ما قد قاله من قدْ مضا   عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرى
وتشتفي العينان من طعم الكرى

قال حسان بن أبي الأسود : رأيت رجلا يصلي الليل كله ، فتتبعت أمره ، فإذا هو مملوك يحمل على رأسه للناس . فقلت له : يا هذا ، أجنيٌّ أنت أم إنسي ؟ أما تستريح ؟ تحمل بالنهار ، وتقوم بالليل ؟ فقال : أسألك إلا ما كتمت عني ،

---

(١) سم نفسك : أي احمل نفسك وشق عليها ؛ حتى تصبح طيعة لك ذلولا .

أنا مملوك ، أؤدي الضريبة لمولاي من خدمتي ، وهو مخلوق ، فكيف بالخالق سبحانه ؟! والأمر أسرع من ذلك . ثم دخلت عليه بعد ذلك فوجدته مريضا ، وليس عنده أحد ، وهو يقول : الساعة الساعة ، ثم جعل يقول : الأمر أسرع من ذلك ، الأمر أسرع من ذلك ، فلم أزل عنده حتى مات رحمة الله عليه .

قال عبد الله بن وهب : كل ملذوذ إنما له لذة واحدة ، إلا العبادة ، فإن لها ثلاث لذات : إذا كنتُ فيها ، وإذا تذكرتُها ، وإذا أعطيتُ ثوابها .

أخي ، من علم ما يطلبُ من ربه ، هان عليه ما يبذل من نفسه .

جَلَّتْ مطالبُه فهانتْ عِنـدَهُ أوصابُــه وحياتُــه ومماتُــه

قال بكر العابد : كنا نكون عند زرعة ـ يعني العابد ـ فهو في أول الليل في سورة البقرة ، وفي آخر الليل في المفصّل ، ورأيته يوما رفع يديه وقال : اللهم لا تجعل حظي منك أكلة ولا شربة ولا لبس هذه المرقعة ، وكان سفيان ابن عيينة يبكي ويقول : يا بكر ، كيف قال زرعة ؟

قال إسماعيل بن زياد : قد رأيت العابدين والمجتهدين ، فما رأيت أحدًا قط أصبر على صلاة بليل ولا نهار من مسرور بن أبي عوانة، كان يصلي لا يفتر، وقدم علينا مرة فاعتل بعلّة، فقال: أخرجوني إلى الساحل؛ حتى أنظر إلى الماء كي لا أنام.

وقال عمّار بن عمرو البجلي : خرجنا مع محمد بن النضر الحارثي(١) إلى مكة ، فما كنا نستيقظ إلا رأيناه على محمله قاعدًا يصلي ، فإذا نزل بالنهار إنما كان في خدمة أصحابه ، فكانوا يقولون له : يا أبا عبد الرحمن ، نحن نكفيك . فيقول : أتأسفون عليّ بالثواب ، فكنا نرى أنه ما نام في ذلك الطريق .

يا بن آدم لو علمت مقدار صلاتك بالليل ، لأكثرت على فوتِها من العويل والويل ، ولو علمت تنوير هذا الظلام للقلوب والأجسام ، لَقُمتَ في سواده ، وتقلّبتَ في حدادِه ، ورغبت في طوله وازدياه .

(١) من عباد الكوفة ، روى عن الأوزاعي ، وروى عنه ابن المبارك . الجرح والتعديل ١١٠/٨ .

قال عبد السلام بن حرب الملائي: ما رأيت أحدا أصبر على سهر الليل من خلف بن حوشب[1]، لقد سافرت معه إلى مكة، فما رأيته نام بليل حتى رجع.

قال ذو النون المصري : إن سفر الآخرة لا يقطع بالراحات ، بل تُحمل النفس فيه على التعب والمشقات .

كان موسى بن أبي عائشة من القائمين بالليل ، وكان يدعى : المجتهد ؛ من كثرة سهره وطول قيامه .

وكان عبد الله بن الوليد المزني أعبد الناس ، وكان بالحيرة ، وكان رهبانها يقولون : ما كنا نظن أن في الحنيفية مثل هذا ، كأنه جذع قائم الليل كله .

كان أبو يونس القوي[2] من العابدين . قال ابن وضاح : قال وكيع بن الجراح ذات يوم : حدثنا أبو يونس القوي عن الحسن . فقيل له : مَنْ أبو يونس القوي ؟ قال : ذاك الذي بكى حتى عمي ، وصلّى حتى احدودب ، وخاف حتى أقعد .

ويُروى عن أبي عمر بن حزب الله قال : كنت في محرس من محارس الشام فسمعت رجلا ينشد هذه الأبيات بالليل :

لو علم الراقدون ما رقـدوا ... ولا تَهنَّـى منامَـهُ أحـدُ
يـأيها النائمـون وَيْحَكُـمُ ... قد فاز مَنْ في الظلام يجتهدُ
إن كُنتـمُ نُوَّمًـا فـإن لـه ... رجال صدقٍ له قد انفردوا

قال : فقام الناس من كل جهة لمّا سمعوه يصلون ويتهجدون .

وقال منصور بن عمّار الواعظ: لو علمت من عصيت؛ لما نِمتَ أو تسترضيه، ولفررت بالنهار مِنْ معاصيه .

(١) كوفي، روى عن طلحة بن مصرف، وروى عنه شعبة وابن عيينة. انظر الجرح والتعديل (٣/٣٦٩).

(٢) سُمِّي بالقوي لقوته على العبادة، وهو الحسن بن يزيد العجلي، كوفي، ثقة. صفة الصفوة (٣/٨٠) والجرح والتعديل (٣/٤٢) .

يَا حبيب القلوب أنت حبيبُ　　أنت أنسي وأنت مني قريبُ
يـا طبيبـا بذكـره يتـداوى　　كلُّ ذي عِلّةٍ فنعم الطبيبُ
طلعت شمس من أحبك ليلا　　واستنارت فما تلاها غـروبُ
إن شمس النهار تغرب بالليل　　وشمس القلوب ليس تغيبُ
فإذا ما الظلام أسبل سِتْـرًا　　فـإلى ربها تحنّ القلـوبُ

كيف يلذ في ظلم الليل المنام مَنْ علم أن حبيبه لا ينام ؟ أما تقوم العيون النائمة إليه ؟ فعساه يقسم لها مِنْ رحْمته ما تتنعم به .

اللهم إن حيائي منك أمرضني ، وحبي لك أسقمني ، فإن فكّرتُ في إحسانك لم أبلغ بفكري إلى كنهه ، وإنْ ذكرت سترك عليّ لم أقم بشكره ، فيا عجبا لقلوب العارفين ، كيف لم تنقطع إجلالًا لك إذْ عرفوك ، وإعظاما لقدرتك إذ وصفك ؟

كان حسان بن أبي سنان من المتهجدين المشمرين ، كان ورعا ، كثير الصلاة ، كثير الصيام؛ فنحل وسقم حتى صار كهيئة الخيال ، فلما مات وأدخل مغسله ليغسل، وكشف عنه الثوب، فإذا هو كالخيط رقة ونحافة ، فجعل أصحابه من حوله يبكون.

قال يحيى بن سليمان وإبراهيم العبسي : لما نظرنا إليه وهو كذلك قد أبلاه الدءوب[1] والاجتهاد، أكبرنا ذلك، وبكى أهل البيت وعلت أصواتهم، فسمعوا قائلا من ناحية البيت يقول :

تَجـوَّعَ لله كـيْ يـراهُ　　نحيل الجسم من طول الصيامِ
وقـام لربـه في الليـل حتـى　　لأذهب جسمَه طولُ القيـام

فوالله ما رأينا في البيت إلا باكيا ، وتفقدنا قائل هذا فلم نر أحدا ، وكانوا يرون أن بعض الجن رثاه ، رحمه الله .

---

(١) الدءوب والدأب بمعنى واحد، وهو : الجد في تحصيل أمر، انظر لسان العرب مادة « د أ ب ».

قام من الليل حين قامَا ودمعه مُرسل سَجامَا[1]
وبين جنبيه نارُ ذكرى تمتحش اللحم والعظاما
لا كحشاه حَشَا مُروّع قام عليه الأسى قياما
ما باله لا يذوق غمضا ما بالُه حَرّم الطعاما
وكلما زدته مَلامًا زاد في أمره هُياما
لَعلّه ذاكرٌ ذنوبا قد ألبست قلبه ظلاما
وأثقلت ظهره فأضحى غير مُطيق بها قياما
وعرّضته لهولِ يومٍ تاه له ذو الحجى وهامَا
إنْ كان هذا فلا تلمه فعاله اليوم والملاما
وَدَعْه يبكي حتى يُبَكِّي من عابه في البُكا ولامَا
فلا أرى دَمْعُهُ امتساكا ولا رأت عينُه منامَا

قال الثوري رحمه الله : تعبد شاب صغير من بني تميم ، فكان يُحيي الليل كله بالصلاة لا ينام ، فقالت له أمه : يا بني ، لو نمت شيئًا . فقال لها : يا أماه ، ما شئت ، إن شئت نمت اليوم ولا أنام غدا ، وإن شئت لم أنم اليوم لعلّي أدرك غدا مع المستريحين من عسر الحساب ، والآمنين من خوف العذاب . فقالت له : والله يا بني ما أريد لك إلا راحة الآخرة، والنجاة من شدائدها، والفوز بنعيمها، يا بني راحة الآخرة أحبّ إليّ لك من راحة الدنيا ، فدونك يا بني ، فحالف السهر لعلك تنجو من عسر ذلك اليوم ، وما أخالك ناجيا .

فصرخ الشاب صرخة خرّ ميتا بين يديها ، فاجتمع إليها نساء بني تميم يُعزُّونها فجعلت تقول : يا بُنيَّاه ، واقتيل يوم القيامة .

(١) أي : كثير دائم لا ينقطع .

(٢) تحرق .

وبعد يا أخي ،

قد سمعت ـ رحمك الله ـ بهؤلاء المتهجدين المجتهدين، والذين لم تسمع بهم أكثر، ولَعَلّ ما سمعت سيوقظ مني ومنك نائما، وينبه مني ومنك غافلا، وإذا كنت بالليل تنام جفونك، وبالنهار تغفل عن إصلاح شئونك، فاسمع صفتي وصفتك:

بلج الصباح وأنت جِذْع راقدُ   كالميِّت المُلقَى وغيرك هاجدُ
مُلِئَتْ جفونُك نومةً لو قُسِّمَتْ   في أمة ما كان فيها ساهِدُ
في ليلة عَرضَتْ وطال زمانها   فالكل من أقطارها متباعد
شَهدتْ عليك بغفلة وبطالة   كل عليك بشُؤْمِه متعاضِدُ
شهّدت عليك بذاكَ زهرُ نجومها   والله ربك فوق ذلك شاهدُ
يا راقدا قلى الكرى أجفَانه   وإذا تيقّظَ فهو أيضا راقدُ
هلّا أفقتَ وفي شبابك فَضْلَةٌ   والموت لم يفجأك منهُ رائد
وقطعت أسباب الهوادة والهوى   إذْ ليس إلا ما يسوءك عائد
فاستدرِكَنْ ما فات منك بتوبة   منها عليك دلائل وشواهِدُ
زفرات محزون وأدمع خائف   قد شابَهُنَّ دمٌ بقلبك عاقد
ونحول جسم قد بَرَاهُ صيامُه   ومصادر محمودة ومواردُ
وإذا الدجى ألقى عليك رداءه   وَدَعَتْكَ غيد للفراش نواهِدُ
فاهجر فراشك عند ذاك فإنما   فُرْش اللبيب هناكَ وَيْكَ مساجدُ
واضرع لمن سلطانهُ لا ينقضي   أبدا وسَيْبُ عطائه متزايدُ
فلعلّه يُعطيكها مقبولةً   ترقى بها ذاك الملا وتشاهدُ
ويعودُ مُرُّ العيش في مرضاته   عَذْبًا ويدنو من مُناك مُباعدُ
وإذا أتتك من المليك عناية   فالكل ساعٍ في هواك وجَاهِدُ

أخي ،

ألا فانْزل عن الفُرُش الوثيره   وإن باتت نُجرِّدُها منيسَرهْ

ووطِّئْ من تُرابِ الأرض فُرُشا   لوجهكَ والدجى مُرْخ ستورَهْ
وأرسل دمـع محزون مصاب   أخـي حُـزن مصيبتـه كبيْـرهْ
تغلغلَ في الذنوب وفي الخطايا   وأقدم في العيان وفي السَّريرَه
فبـات بقلبـه منها اضطـراب   وبين شئونــه عين غزيــرَه
وإنْ يُطْفَأَ سعيرٌ في فـؤادي   فذكــراهُ مؤجّجــةٌ سعيــرَه
ومَنْ يحللُ بوادي الذنب أنّى   تبيتُ لـه بـه عين قريـرهْ؟!

أخي ... وقبل الرحيل .. وقبل الوداع :

يــا راقــدَ الليـــل والنهارِ   وبائــع الربــح بـــالخسَارِ
وصاعـــدا ذِرْوة الأمـــاني   وهو مـن العمـر في انحدار
وغافـــلا والمنـــون رُدَّتْ   إليـــه مسنونـــة الشّفَـــارِ
وَيْك تيقـظْ فـإن جـــارا   جــاورْتَ منها لشَرٍّ جـــار
ولـيس ينجيـك فضلُ مـالٍ   ولا رجـالٌ ذوو اقتـــدار
ولا جيـــادٌ مُضمـــرات   تخرج مـــن كبة[1]الغبـــار
وإن مـنْ نـامَ وهْـو خَلِـقٌ   عن ذكرِ هذا لفـي اغتـرار
فقـم وثـوب الظـلام ضاف   وأنت مستجمِـــع الإزار
ومـاء عينـيك في انسكــاب   ونـار جنبيك في استِعـــار
واضرع لمنْ جـوده عميـمٌ   يُسكبُ بالليـــــل والنهار
عساه يُعطيكهـــا نصوحـــا   تصلح مـا كان مـن عَـوَار
وتقـبس النـور في فـؤاد   كأنـــه مُلَـبَّسٌ بقــــار
ونادِ يـا مـن بـه استنـارت   في الفُـلْك السبعـة الـدّوار
ومَـنْ بــه قـامَ كُـلُّ شيءٍ   في الخلق من جامد وجَـارِ
عَبْـدُك وافـاكَ في ذنـــوبٍ   يسبــحُ منهن في بِحـــارِ
لـيس لها ساحـل يُرجّـى   فيــه نجاةٌ مــن البـــوار

(١) كبة الغبار : شدته .

غير رجائي إليك يسري ... إذْ أغلقتْ دونَه المسارِ
فامنن عليه بفضل عفوٍ ... يغسل من حُوبِه الكبار
ما ألبست وجهه سخاما ... وطوّقت جيده بعارِ
أولى فمن ذا سواك نرجو ... أوْ من إلى فضله نجَار

أخي، وفي نهاية هذا الفصل، وهو نهاية الكلام عن التهجد والقيام، لا أودعك إلّا بوصية وموعظة طبيب القلوب يحيى بن معاذ الرازي : « ما وجدنا في الفضائل عملا أفضل من قيام الليل ، ولا ورثوا عن شيء من تلك الأعمال ما ورثوا عن قيام ، الليل، به وجدوا القلوب، وزايلوا الذنوب، ووقعوا على الطريق إلى علام الغيوب » .